القصص العالمية

الفرسان الثلاثة


آتوس
أراميس
دارْتَنْيان
پورْتوس

اسكَنْدَر دوماس (١٨٠٢ – ١٨٧٠)

كاتِبٌ فَرَنْسِيٌّ ذائعُ الصِّيتِ. لَهُ الكَثيرُ من المَسْرَحِيّاتِ والقِصَصِ الَّتي تَقومُ على أساسٍ تاريخِيٍّ. من أَشْهَرِ مَسْرَحِيّاتِهِ: «هنري الثّالِثُ وبَلاطُهُ»؛ ومن أَشْهَرِ رِواياتِهِ: «الكونْت دو مونْت كْريستو»، و«الفُرْسانُ الثّلاثَةُ» الّتي نُقَدِّمُها ها هنا إلى القارِئِ العَرَبِيِّ.

ظَهَرَتْ رِوايَةُ «الفُرْسانُ الثَّلاثَة» في العامِ ١٨٤٤. وهي تُصَوِّرُ جانِبًا من الحَياةِ الّتي كانَتْ تَعيشُها فَرَنْسا في العامِ ١٦٢٥ في عَهْدِ المَلِكِ لويس الثّالِثَ عَشَرَ. لقد كانَ ذٰلِكَ العَهْدُ عَهْدَ اضْطِراباتٍ ومَكائِدَ ومُنازَعاتٍ ومُصادَماتٍ، ولٰكِنَّهُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ كانَ عَهْدَ فُروسِيَّةٍ وتَمَسُّكٍ بالمُثُلِ العُلْيا ونُصْرَةٍ للضَّعيفِ والمَظْلومِ. إنَّ دارْتَنْيان ورِفاقَهُ الفُرْسانَ، آتوس وبورْتوس وأراميس، الّذين سَتَتَعَرَّفُ إلى جانِبٍ من مُغامَراتِهِمْ في هٰذا الكِتابِ، هم من أولٰئِكَ الرِّجالِ الّذين كانوا مُسْتَعِدّينَ للمُخاطَرَةِ بِحَياتِهِمْ دِفاعًا عَمّا كانوا يَعْتَبِرونَهُ حَقًّا.

سَتَجِدُ هٰذِهِ الرِّوايَةُ طَريقَها إلى قُلوبِ القُرّاءِ، فأَحْداثُها مُشَوِّقَةٌ مُثيرَةٌ حافِلَةٌ بِمَشاهِدِ المُغامَراتِ والمُبارَزاتِ. يَزيدُ ذٰلِكَ كُلَّهُ جَمالًا وتَشْويقًا الرُّسومُ الرّائِعَةُ الدَّقيقَةُ الّتي تُجَسِّمُ الأَحْداثَ وتُعْطي صورَةً صافِيَةً صَحيحَةً عن الجَوِّ التاريخِيِّ لِذٰلِكَ الزَّمانِ.

سِلْسِلَة «القِصَص العالَمِيَّة»

١ – جَزيرَةُ الكَنْز
٢ – أُسْرَةُ روبِنْسُن السّويسرِيَّة
٣ – الحَديقَةُ السِّرِّيَّة
٤ – رِحْلَةٌ إلى باطِنِ الأَرْض
٥ – قِصَّةُ مَدينَتَيْن
٦ – العالَمُ المَفْقود
٧ – الفُرْسانُ الثَّلاثَة

الفُرُسانُ الثّلاثَة



أَعَدَّ النَّصَّ العَرَبِيَّ: أ. ح. مُطْلَق
عَنْ قِصَّة: إسْكَنْدَر دوماس
رُسوم: فْرانْك هَمْفْرِس

مَكْتَبَة لُبْنان



في صَباحِ يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ نيسانَ (أبْريل) مِنْ عامِ ١٦٢٥ بَدَتْ بَلْدَةُ مونْغ الفَرَنْسِيَّةُ في هَرْجٍ ومَرْجٍ. كانَتْ فَرَنْسا في ذٰلِكَ الزَّمانِ تَعيشُ جَوَّ عَداواتٍ ومُصادَماتٍ. فَالكارْدينالُ الطّامِعُ ريشيلْيو يُناهِضُ المَلِكَ ويَسْعى لِمُضاهاتِهِ قُوَّةً وسُلْطانًا. وبَيْنَ الأُسَرِ النَّبيلَةِ اشْتِباكاتٌ ومُنازَعاتٌ. وفَوْقَ ذٰلِكَ كُلِّهِ كانَ الجَيْشُ الإسْبانِيُّ عَلى الحُدودِ الفَرَنْسِيَّةِ تَوّاقًا أَبَدًا لِشَنِّ الهَجَماتِ. قَلَّما كانَتْ تَمُرُّ أَيّامٌ دونَ حُدوثِ اضْطِرابٍ في هٰذِهِ البَلْدَةِ أَوْ تِلْكَ.

في ذٰلِكَ الصَّباحِ احْتَشَدَ جَمْعٌ مِنَ الفُضولِيّينَ أَمامَ نُزُلِ البَلْدَةِ. فَقَدْ وَصَلَ شابٌّ مُنْتَصِبُ القامَةِ عالي الجَبينِ على مَتْنِ جَوادٍ عَجوزٍ لَمْ يَرَ أَهْلُ البَلْدَةِ شَبيهًا لَهُ في ضَعْفِهِ وهُزالِهِ. وبَدا المَشْهَدُ مُضْحِكًا،

ولٰكِنَّ نَظَراتِ الشّابِّ الحادَّةَ والفُتُوَّةَ البادِيَةَ عَلى مُحَيّاهُ والسَّيْفَ الطَّويلَ الَّذي كانَ يَتَقَلَّدُهُ أَقْنَعَتْهُمْ بِكَتْمِ ضِحْكاتِهِمْ.

كانَ الشّابُّ، واسْمُهُ دارْتَنْيان، في طَريقِهِ إلى باريس، حَيْثُ كانَ يَأْمُلُ في تَحْقيقِ أَغْلى أُمْنِيَّةٍ عَلى قَلْبِهِ، وهِيَ أَنْ يُصْبِحَ فارِسًا مِنْ فُرْسانِ المَلِكِ. وكانَ يَحْمِلُ مَعَهُ رِسالَةً مِنْ أَبيهِ إلى قائِدِ الفُرْسانِ السَّيِّدِ دو تْريڤيل، أَحَدِ أَصْدِقاءِ أَبيهِ القُدامى.

وبَيْنَما كانَ دارْتَنْيان يَتَرَجَّلُ عَنْ جَوادِهِ لَمَحَ في نافِذَةِ النُّزُلِ رَجُلًا ذا نَدْبَةٍ عَلى صُدْغِهِ، يَتَحَدَّثُ إلى رَجُلَيْنِ آخَرَيْنِ. وكانَ الثَّلاثَةُ يَضْحَكونَ، وبَدا واضِحًا لِدارْتَنْيان أَنَّهُمْ يَضْحَكونَ عَلَيْهِ.

لَمْ يُطِقْ دارْتَنْيان ذٰلِكَ المَشْهَدَ ، فقالَ بِغَضَبٍ شَديدٍ :

«أَخْبِرْني أَيُّها السَّيِّدُ عَمّا يُضْحِكُكَ ، لَعَلَّنا نَضْحَكُ سَوِيَّةً .»

«لَمْ أَكُنْ أَتَحَدَّثُ إِلَيْكَ أَيُّها السَّيِّدُ .»

اسْتَلَّ دارْتَنْيان سَيْفَهُ ، وهو يَقولُ : «أَكُنْتَ تَضْحَكُ عَلَيَّ؟»

خَرَجَ الرَّجُلُ ذو النَّدْبَةِ مِنَ النُّزُلِ وواجَهَ دارْتَنْيان وقالَ : «أَضْحَكُ كَيْفَ أَشاءُ ومَتى أَشاءُ .»

اِنْقَضَّ دارْتَنْيان عَلى خَصْمِهِ ، فارْتَدَّ الرَّجُلُ وأَسْرَعَ يَسْتَلُّ سَيْفَهُ هو أَيْضًا . في اللَّحْظَةِ نَفْسِها ، ورَغْبَةً في مَنْعِ المُبارَزَةِ ، هاجَمَ صاحِبُ النُّزُلِ ونَفَرٌ مِنَ الجُمْهورِ دارْتَنْيان وصَرَعوهُ أَرْضًا ، ثُمَّ حَمَلوهُ إلى داخِلِ النُّزُلِ فاقِدَ الوَعْيِ . وبَعْدَ هُنَيْهَةٍ ، سَأَلَ ذو النَّدْبَةِ عَنْ حالِ الشّابِّ وعَنْ هُوِيَّتِهِ ، فَأَجابَ صاحِبُ النُّزُلِ :

«سَيَعودُ وَعْيُهُ إِلَيْهِ بَعْدَ قَليلٍ . ولا أَعْرِفُ مَنْ هوَ يا سَيِّدي ، ولٰكِنَّهُ يَحْمِلُ رِسالَةً إِلى السَّيِّدِ دو تْريڤيل في باريس .»

بَدا الاِهْتِمامُ عَلى ذي النَّدْبَةِ وقالَ : «حَقًّا ! أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ ما في تِلْكَ الرِّسالَةِ . ذٰلِكَ شابٌّ مُثيرٌ لِلمَتاعِبِ . أَرْجوكَ أَعِدَّ فاتورَةَ حِسابي ، فإِنّي مُغادِرٌ النُّزُلَ . عَلَيَّ أَنْ أُقابِلَ ميلادي ، ولا أُريدُ أَنْ تَقَعَ عَيْنُ ذٰلِكَ الشّابِّ عَلَيْها .»

بَعْدَ ذٰلِكَ بِقَليلٍ ، بَدَأَ وَعْيُ دارْتَنْيان يَعودُ إِلَيْهِ . مَشى إِلى النّافِذَةِ مُتَرَنِّحًا فوَقَعَ بَصَرُهُ على ذي النَّدْبَةِ وهوَ يَقِفُ إِلى جانِبِ عَرَبَةٍ ويُكَلِّمُ سَيِّدَةً جَميلَةً .



سَأَلَتِ السَّيِّدَةُ: «ما هي أوامِرُ الكارْدينالِ؟»

«عَلَيْكِ أَنْ تَعودي إلى إنْكِلْترا فَوْرًا. راقِبي دوق بَكِنغهام، فإذا تَرَكَ لَنْدَنَ أَعْلِمي الكارْدينالَ. أَنا عائِدٌ إلى باريس.»

إنْدَفَعَ دارْتَنْيان خارِجَ النُّزُلِ وصاحَ: «قِفْ وقاتِلْ، أَيُّها السَّيِّدُ! أَتَجْرُؤُ على الهَرَبِ في حَضْرَةِ سَيِّدَةٍ؟»

امْتَدَّتْ يَدُ الرَّجُلِ إلى سَيْفِهِ، فأَسْرَعَتْ ميلادي تَضَعُ يَدَها على ذِراعِهِ وتَقولُ:

«تَذَكَّرْ أَنَّ التَّأْخيرَ قد يَتَسَبَّبُ في إفْسادِ خُطَطِنا.»

وافَقَها الرَّجُلُ الرَّأْيَ قائلًا: «الحَقُّ مَعَكِ، اِذْهَبي في طَريقِكِ، وأَنا ذاهِبٌ في طَريقي.»

لَوَّحَ الحوذِيُّ بسَوْطِهِ فتَحَرَّكَتِ العَرَبَةُ في اتِّجاهٍ، وقَفَزَ ذو النَّدْبَةِ على ظَهْرِ جَوادِهِ وراحَ يَعْدو بِهِ في اتِّجاهٍ آخَرَ.

صاحَ دارْتَنْيان وراءَهُ: «جَبانٌ!» ولٰكِنَّ الرَّجُلَ كانَ قد مَضى.

* * *

راحَ دارْتَنْيان يُعِدُّ نَفْسَهُ للارْتِحالِ إلى باريس، وسُرْعانَ ما اكْتَشَفَ أَنَّ رِسالَتَهُ اخْتَفَتْ. فأَسْرَعَ إلى صاحِبِ النُّزُلِ، وقد بَدَتْ على وَجْهِهِ عَلاماتُ الغَضَبِ الشَّديدِ.

دَبَّ الذُّعْرُ في قَلْبِ صاحِبِ النُّزُلِ، وأَسْرَعَ يَقولُ بِصَوْتٍ

خائفٍ: «ذٰلِكَ الرَّجُلُ أَخَذَ رِسالَتَكَ، يا سَيِّدي. ورَأَيْتُهُ يُبْدي اهْتِمامًا شَديدًا بِها.»

لَقَدْ ضاعَتِ الرِّسالَةُ إذًا! ولَم يَعُدْ أَمامَ دارْتَنْيان غَيْرَ أَنْ يَأْمُلَ بأَنْ يَسْتَقْبِلَهُ السَّيِّدُ دو تْريفيل ويُساعِدَه دونَ رِسالَةِ التَّوْصِيَةِ تِلْكَ.



كانَ السَّيِّدُ دو تريفيل صَديقًا حَميمًا للمَلِكِ لويس الثّالثَ عَشَرَ. وكانَ حاكِمُ فَرَنْسا ، في أَيّامِ الاضْطِرابِ تِلْكَ ، بِحاجَةٍ إلى ذٰلِكَ الرَّجُلِ الشُّجاعِ على رَأْسِ فِرْقَةٍ مِنَ الفُرْسانِ الأَشاوِسِ كَرَّسوا حَياتَهُمْ لِخِدْمَةِ مَليكِهِمْ.

وكانَ للكارْدينالِ ريشيلْيو ، الّذي كادَتْ قُوَّتُهُ أَنْ تُضاهيَ قُوَّةَ المَلِكِ نَفْسِهِ ، رِجالُهُ هُوَ أَيْضًا. وهٰؤلاءِ كانوا يُعْرَفونَ باسْمِ حَرَسِ الكارْدينالِ. ودَأَبَ كُلٌّ مِنَ المَلِكِ والكارْدينالِ على التَّفاخُرِ بِرِجالِهِ وتَشْجيعِهِمْ سِرًّا على مُقاتَلَةِ رِجالِ الطَّرَفِ الآخَرِ.

وكانَ مَرْكَزُ قِيادَةِ السَّيِّدِ دو تريفيل يَعِجُّ دائمًا بالفُرْسانِ. وحينَ

وَصَلَ دارْتَنْيان إلى هُناكَ راحَ يَشُقُّ طَريقَهُ بَيْنَهُمْ بِقَلْبٍ خافِقٍ طافِحٍ بالانْفِعالِ والأَمَلِ. وقد أُذِنَ له بِمُقابَلَةِ السَّيِّدِ دو تريفيل ، ولٰكِنْ كانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ ؛ فقد كانَ قائدُ الفُرْسانِ يُوَبِّخُ نَفَرًا من رِجالِهِ :

«آتوس ! بورْتوس ! أراميس ! قيلَ لي إنَّكُمْ أَثَرْتُمْ قِتالًا في الطُّرُقاتِ وإنَّ حَرَسَ الكارْدينالِ اعْتَقَلوكُمْ. هٰذا أَمْرٌ لا يَجوزُ ! »

رَدَّ الفُرْسانُ بِلَهْجَةِ احْتِجاجٍ : «لٰكِنَّهُمْ هاجَمونا ، فقاتَلْناهُمْ ، ثُمَّ انْسَحَبْنا من ساحَةِ القِتالِ.»

تَمْتَمَ دو تريفيل قائلًا : «لم يَقُلْ لي الكارْدينالُ ذٰلك. على أَيِّ حالٍ ، لَنْ أَسْمَحَ لِرِجالي أَنْ يُخاطِروا بِحَياتِهِمْ دونَ مَعْنًى. فالمَلِكُ بِحاجَةٍ إلى فُرْسانِهِ الشُّجْعانِ. اِذْهَبوا الآنَ ، فإنّي سأُقابِلُ هٰذا الشّابَّ.»



قَدَّمَ دارْتَنْيان نَفْسَهُ بِصَوْتٍ كُلُّه حَماسَةٌ فابْتَسَمَ السَّيِّدُ دو تريڤيل وقالَ :

«أَبوكَ صَديقٌ قَديمٌ . هل أَسْتَطيعُ أَنْ أَخْدُمَكَ بشَيْءٍ؟»

ذَكَرَ لَهُ دارْتَنْيان أَنَّهُ جاءَ إلى باريس لِيَنْضَمَّ إلى فِرْقَةِ الفُرْسانِ .

أَجابَ القائِدُ : «لا يُمْكِنُ الالْتِحاقُ بِفِرْقَةِ الفُرْسانِ على هٰذِهِ الصّورَةِ . فإنَّ عَلَيْكَ أَوَّلًا أَنْ تخْدُمَ في فِرْقَةٍ أَقَلَّ شأْنًا . سأُرْسِلُكَ إلى مَعْهَدِ السِّلاحِ المَلَكِيِّ حَيْثُ تَتعَلَّمُ فُنونَ الفُروسِيَّةِ والمُبارَزَةِ . أَطْلِعْني دائمًا على خُطُواتِ تَقَدُّمِكَ .»

سُرَّ دارْتَنْيان سُرورًا عَظيمًا ، فشكَرَ السَّيِّدَ دو تْريڤيل ، وخَرَجَ وهو ، من فَرْطِ حَماسَتِهِ ، يَكادُ لا يَرى طَريقَهُ . وقد شاءَتِ المُصادَفَةُ أَنْ يَصْطَدِمَ في طَريقِهِ بالفُرْسانِ الثَّلاثَةِ الَّذينَ شاهَدَهُمْ عِنْدَ قائِدِ الفُرْسانِ ، الواحِدِ بُعَيْدَ الآخَرِ . وكانَ هٰؤلاءِ لا يَزالونَ مُنْفَعِلينَ بَعْدَ ما تَلَقَّوْهُ من تَوْبيخٍ ، فلَمْ يَحْتَمِلوا الأَمْرَ . ووَجَدَ الشّابُّ نَفْسَهُ يُواجِهُ تَحَدِّيًا بالمُبارَزَةِ منَ الفُرْسانِ الثَّلاثَةِ ، واتَّفَقَ على أَنْ يُقابِلَ آتوس ظُهْرًا ، وبورْتوس في الواحِدَةِ وأَراميس في الثّانِيَةِ !

أَحَسَّ دارْتَنْيان بالحَيْرَةِ والفَزَعِ ، وقالَ في نَفْسِهِ : «لا أَقْبَلُ على نَفْسي أَنْ أَنْسَحِبَ ، وإذا مِتُّ فسأَموتُ ، على الأَقَلِّ ، على يَدَيْ فارِسٍ من فُرْسانِ المَلِكِ» .



لم يَكُنْ دارْتَنْيان يَعْرِفُ أَحَدًا في باريس. فذَهَبَ لمُلاقاةِ آتوس وَحيدًا ، وقد عقَدَ العَزْمَ على أَنْ يُقاتِلَ قِتالًا مُشَرِّفًا. ثُمَّ وَصَلَ آتوس وقد رافَقَهُ صَديقاهُ الفارسانِ الآخَرانِ كَشاهِدَيْن. وقد ذَهِلَ الفُرْسانُ الثَّلاثَةُ حينَ اكْتَشفوا أَنَّهُمْ ثَلاثَتَهُمْ على مَوْعِدٍ لمُبارَزَةِ الشّابِّ نَفْسِهِ.

قال دارْتَنْيان : «ما دُمْتُمْ ثَلاثَتُكُمْ هُنا فإِنّي أَوَدُّ الاعْتِذارَ.»

لَمَحَ دارْتَنْيان ، عِنْدَ ذِكْرِهِ لِكَلِمَةِ «اعْتِذار» ، نَظَراتِ الاحْتِقارِ تُطِلُّ من عُيونِ الفُرْسانِ ، فقَدْ حَسِبوهُ جَبانًا. فاشْتَعَلَ غَضَبًا وقالَ :

«لقد أَسأْتُمْ فَهْمي أَيُّها السّادَةُ ! فأَنا أَعْتَذِرُ لأَنَّ الفُرْصَةَ لن تُتاحَ لي لِمُقاتَلَتِكُمْ أَنْتم الثَّلاثَة. للسَّيِّدِ آتوس الحَقُّ في أَنْ يَقْتُلَني أَوَّلًا. والآنَ – إلى السِّلاحِ !»

اِسْتَلَّ دارْتَنْيان سَيْفَهُ بحَرَكَةٍ كلُّها جُرْأَةٌ وفُروسِيَّةٌ. اِسْتَلَّ آتوس سَيْفَهُ هو أَيْضًا ، ولٰكِنْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَطَلَّتْ جَماعَةٌ من حَرَسِ الكارْدينالِ.

صَرَخَ واحِدٌ من حَرَسِ الكارْدينالِ ساخِرًا : «أَتَتَبارَزونَ ، أَيُّها الفُرْسانُ؟ تَعْرِفونَ أَنَّ المُبارَزَةَ مَمْنوعَةٌ. اِرْموا سُيوفَكُمْ ، فأَنْتُمْ مَوْقوفونَ !»

رَدَّ الفُرْسانُ قائلينَ : «لَنْ نَرْمِيَ سُيوفَنا ! فقَدْ نكونُ ثَلاثَةً فَقَطْ ، ولٰكِنَّنا سنُقاتِلُ.»



أَسْرَعَ دارْتَنْيان يَقولُ بِثِقَةٍ واعْتِدادٍ :

«بَلْ نَحْنُ أَرْبَعَةٌ. جَرِّبوني.»

قالَ آتوس : «ما اسْمُكَ أَيُّها الفَتى الشُّجاعُ؟»

«دارْتَنْيان ، يا سَيِّدي.»

«هَيَّا ، إِذًا ، يا آتوس ، پورْتوس ، أَراميس ، ودارْتَنْيان ، إِلى الأَمامِ !»

عَلا صَليلُ السُّيوفِ ، وارْتَفَعَتْ صَيْحاتُ الرِّجالِ وهُمْ يُقاتِلونَ بِضَراوَةٍ كَرًّا وفَرًّا. لقد كانَ حَرَسُ الكارْدينالِ مُقاتِلينَ بارِعينَ ، لكِنَّهُمْ أَخيرًا غُلِبوا على أَمْرِهِمْ. فَتَوَجَّهَ الرِّجالُ الأَرْبَعَةُ المُنْتَصِرونَ إِلى السَّيِّدِ دوتْريفيل مُتَأَبِّطينَ بَعْضُهُمْ ذِراعَ بَعْضٍ.

أَحَسَّ دارْتَنْيان بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ واعْتِزازٍ ، وقالَ لِصَحْبِهِ : «لم أَبْلُغْ بَعْدُ مَرْتَبَةَ فارِسٍ ولٰكِنِّي أَعْتَبِرُ نَفْسي مُرَشَّحًا لِمِثْلِ هٰذا الشَّرَفِ.»

أَثارَ الحادِثُ ضَجَّةً كَبيرَةً في البَلَدِ. قامَ السَّيِّدُ دوتْريفيل بِتَوْبيخِ رِجالِهِ عَلَنًا ، ولٰكِنَّهُ هَنَّأَهُمْ سِرًّا. وسَمِعَ المَلِكُ بما جَرى وأُعْجِبَ إِعْجابًا شَديدًا بِشَجاعَةِ دارْتَنْيان .

ونَشَأَتْ ، مُنْذُ ذٰلِكَ الوَقْتِ ، صَداقَةٌ حَميمَةٌ بَيْنَ دارْتَنْيان والفُرْسانِ الثَّلاثَةِ. وعَرَفَ الشَّابُّ أُمورًا كَثيرَةً عن حَياةِ باريس وبَلاطِ المَلِكِ لويس الثَّالِثَ عَشَرَ وعن مَلِكَةِ فَرَنْسا الجَميلَةِ. كانَ سَعيدًا ، تَوّاقًا لِلْيَوْمِ الَّذي يُصْبِحُ هو فيه أَيْضًا فارِسًا من فُرْسانِ المَلِكِ.

بَيْنَما كانَ دارْتَنْيان ، ذاتَ يَوْمٍ ، في غُرْفَتِهِ جاءَهُ صاحِبُ المَبْنى ، السَّيِّدُ بوناسْيو ، وقالَ لَهُ :

«سَمِعْتُ أَنَّكَ شابٌّ شُجاعٌ، يا دارْتَنْيان. أَنا بِحاجَةٍ إِلى عَوْنٍ. فَقَدْ اخْتُطِفَتْ زَوْجَتي كونْستانْس !»

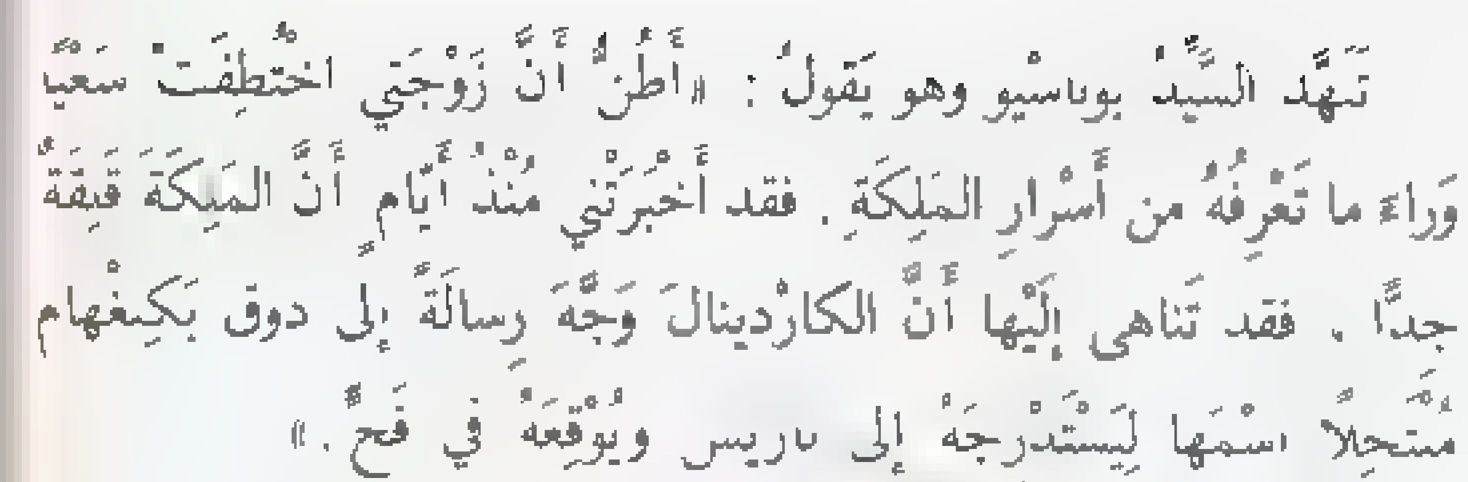
«اخْتُطِفَتْ؟»

«زَوْجَتي خَيّاطَةُ المَلِكَةِ. ولٰكِنَّها أَيْضًا مَوْضِعُ ثِقَةِ المَلِكَةِ وأَمينَةُ أَسْرارِها.»

كانَ دارْتَنْيان قد سَمِعَ الكَثيرَ عن حَياةِ المَلِكَةِ. فقد كانَت امْرَأَةً مُسْتَوْحِشَةً ، تَحْمي زَوْجُها عن إسْباغِ مَحَبَّتِهِ وعَطْفِهِ عَلَيْه. وكانَ



الكارْدينالُ ، فيما مَضى ، يَميلُ إلَيْها ، لكِنَّها صَدَّتْهُ ، فراحَ ، من غَيْرَتِهِ ، يَحيكُ ضِدَّها المُؤامَراتِ. وحَدَثَ أَنْ كانَ دوق بَكِنْغهام ، وهو رَجُلٌ نافِذٌ في دَوْلَةِ إِنْكِلْترا ، مُعْجَبٌ بِمَلِكَةِ فَرَنْسا. ولم تَكُنْ فَرَنْسا وإِنْكِلْترا ، في ذٰلِكَ الوَقْتِ ، على وِفاقٍ.



تَنَهَّدَ السَّيِّدُ بوناسْيو وهو يَقولُ: «أَظُنُّ أَنَّ زَوْجَتي اخْتُطِفَتْ سَعْيًا وَراءَ ما تَعْرِفُهُ من أَسْرارِ المَلِكَةِ. فقد أَخْبَرَتْني مُنْذُ أَيّامٍ أَنَّ المَلِكَةَ قَلِقَةٌ جِدًّا. فقد تَناهى إِلَيْها أَنَّ الكارْدينالَ وَجَّهَ رِسالَةً إِلى دوق بكينغهام مُنْتَحِلًا اسْمَها لِيَسْتَدْرِجَهُ إِلى باريس ويُوقِعَهُ في فَخٍّ.»

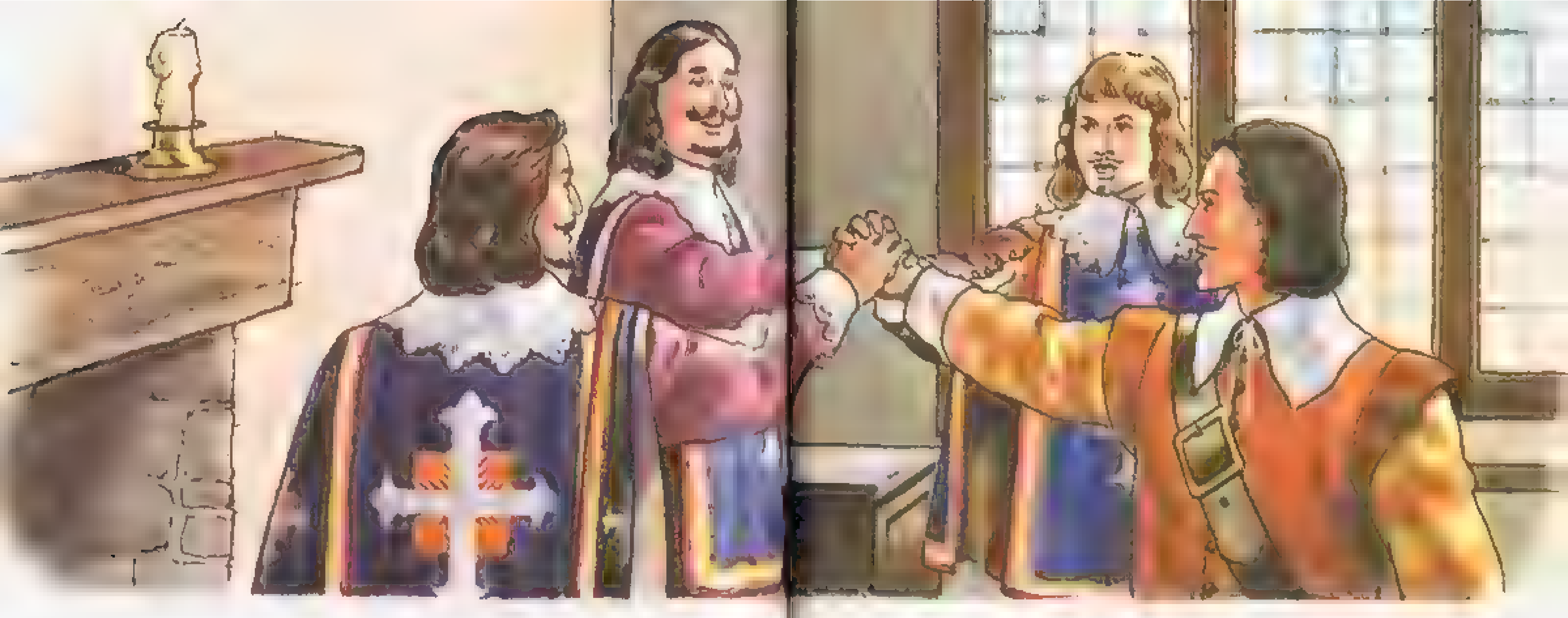
«أَتَظُنُّ أَنَّ الكارْدينالَ هو الَّذي اخْتَطَفَ زَوْجَتَكَ؟»

أَجابَ السَّيِّدُ بوناسْيو: «أَخْشى ذلِكَ. فقد شُوهِدَ أَحَدُ رِجالِهِ يَشُدُّها إِلى عَرَبَتِهِ. إِنَّهُ رَجُلٌ ذو نَدْبَةٍ على صُدْغِهِ.»

أَسْرَعَ دارْتَنْيان يَقولُ: «يَبْدو لي أَنَّهُ الرَّجُلُ نَفْسُهُ الَّذي قابَلْتُهُ في مونْغ!»

قالَ السَّيِّدُ بوناسْيو راجِيًا: «أَتُساعِدُني؟ أَعْرِفُ أَنَّكَ دائمًا في صُحْبَةِ الفُرْسانِ الَّذينَ هُمْ أَعْداءُ الكارْدينالِ، وسَيُسْعِدُكُمْ أَنْ تُفْسِدوا خُطَطَهُ، وأَنْ تُساعِدوا المَلِكَةَ في الوَقْتِ نَفْسِهِ.»

اِقْتَنَعَ دارْتَنْيان بِكَلامِ مُحَدِّثِهِ، وقالَ: «سَأَبْذُلُ جَهْدي. وإِذا صَدَقَ ظَنّي، وكانَ الرَّجُلُ ذو النَّدْبَةِ هو عَيْنَه ذاكَ الَّذي قابَلْتُهُ في مونْغ، فستكونُ تِلْكَ فُرْصَةً أَنْتَقِمُ فيها لِنَفْسي!»



لم يُضيِّعْ دارْتَنْيان وَقْتًا ، فأَسْرَعَ يُعْلِمُ أَصْدِقاءَهُ آتوس ، پورْتوس وأَراميس باخْتِفاءِ كونسْتانس بوناسْيو.

قالَ لَهُمْ : «هذِهِ المَرْأَةُ أَوْقَعَها إخلاصُها لمَليكَتِها في وَرْطَةٍ . كما أَنّي قَلِقٌ على سَلامَةِ المَلِكَةِ.»

قالَ آتوس : «سَمِعْتُ النّاسَ يَقولونَ إنَّ المَلِكَةَ تُحِبُّ أَعْداءَنا الإسْبانَ والإنْكليزَ.»

قالَ دارْتَنْيان مُوَضِّحًا : «لا تَنْسَ أَنَّها إسْبانِيَّةٌ مَوْلِدًا . فمِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ تُحِبَّ مَوْطِنَها الأَصْلِيَّ . أَمّا بالنِّسْبَةِ للإنْكليزِ فإنَّ شَخْصًا واحِدًا في إنْكِلْترا يَحْظَى بإعْجابِها ، ذلِكَ هُوَ دوق بَكِنْغهام . ويَبْدو لي

أَنَّ الكارْدينالَ ورِجالَهُ يَسْتَغِلّونَ إعْجابَهُ بمَلِكَتِنا لِيَحيكوا مُؤامَرَةً دَنيئَةً.»

أَقَرَّ الفُرْسانُ أَنَّ عَدُوَّهُمُ الحَقيقِيَّ هو الكارْدينالْ . فإنْ واتَتْهُمْ فُرْصة لإفْسادِ خُطَطِهِ فذلِكَ يَسْتَحِقُّ المُخاطَرَةَ بحَياتِهِمْ . إنَّ اختِفاءَ كونستانس بوناسْيو هو مِفْتاحُ السِّرِّ . كانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْثُروا عَلَيْها ، واتَّفَقوا أَنْ يَشْتَرِكوا كُلُّهُمْ في تِلْكَ المُهِمَّةِ.

مَدَّ الرِّجالُ الأَرْبَعَةُ أَيْدِيَهُمْ لِتَتَشابَكَ مَعًا ، وصاحوا بصَوْتٍ واحِدٍ :

«الكُلُّ لِلْواحِدِ ، والواحِدُ لِلْكُلِّ !»

كانَتْ مُهِمَّةُ دارْتَنْيان تَقْضي بأَنْ يُراقِبَ شِقَقَ السَّيِّدِ بوناسْيو من غُرْفَتِهِ الواقِعَةِ في الطّابَقِ العُلْوِيِّ. فقد حَدَثَ أَنِ اعْتَقَلَ رِجالُ الكارْدينالِ السَّيِّدَ بوناسْيو، وجَعَلوا يَعْتَقِلونَ كُلَّ مَنْ يَأْتي إلى مَنْزِلِهِ مُحاوِلينَ انْتِزاعَ أَيَّةِ مَعْلوماتٍ عَنْ حَياةِ المَلِكَةِ.

وفي ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ من إحْدى اللَّيالي، سَمِعَ دارْتَنْيان صُراخَ امْرَأَةٍ صادِرًا من الطّابَقِ الأَرْضِيِّ. فاسْتَلَّ سَيْفَهُ وهُرِعَ إلى النَّجْدَةِ. وكانَتْ صاحِبَةُ الاسْتِغاثَةِ كونسْتانْس بوناسْيو نَفْسَها! فقد كانَتْ فَرَّتْ من آسِرِيها وعادَتْ إلى بَيْتِها، حَيْثُ كانَ حَرَسُ الكارْدينالِ في انْتِظارِها. ولكِنْ هُجومُ دارْتَنْيان المُفاجِئُ أَرْبَكَ الحَرَسَ فَوَلَّوا الأَدْبارَ.

قالَتِ المَرْأَةُ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «شُكْرًا لَكَ على إنْقاذِ حَياتي! والآنَ عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ – عِنْدي خِدْمَةٌ عاجِلَةٌ لِلْمَلِكَةِ.»

بَعْدَ ساعاتٍ، وكانَ الظَّلامُ قد حَلَّ، فوجِئَ دارْتَنْيان بِتِلْكَ المَرْأَةِ تُكَلِّمُ، في أَحَدِ الشَّوارِعِ، رَجُلًا شَبيهًا بصَديقِهِ أراميس. ماذا كانا يَفْعَلانِ؟ أَسْرَعَ دارْتَنْيان إلَيْهِما. فرأى أَنَّ الرَّجُلَ غَريبٌ مُتَنَكِّرٌ في زِيِّ الفُرْسانِ. ذلِكَ هو دوق بَكِنْغهام! وكانَتْ كونْسْتانْس بوناسْيو تَصْطَحِبُهُ إلى اجْتِماعٍ سِرِّيٍّ مَعَ المَلِكَةِ في قَصْرِ اللّوفْرِ.

تَوَسَّلَتِ السَّيِّدَةُ إلى دارْتَنْيان قائِلَةً «أَرْجوكَ لا تَكْشِفْ أَمْرَنا! فذلِكَ سَيُحَطِّمُنا جَميعًا»



بَدا دارْتَنْيان مُقْتَنِعًا بصِدْقِ المَرْأَةِ، فصافَحَ الدّوقَ وقالَ: «سأَعْمَلُ على أَنْ تَصِلا اللّوفْرَ سالِمَيْنِ.»

قادَتِ السَّيِّدَةُ بوناسْيو الدّوقَ إلى غُرْفَةٍ هادِئَةٍ في قَصْرِ اللّوفْرِ. لَقَدْ جاءَ بَكِنغْهام إلى باريس تَلْبِيَةً لِدَعْوَةٍ ظَنَّ أَنَّهُ تَلَقّاها مِنَ المَلِكَةِ. وما إنْ وَصَلَ المَدينَةَ حتّى عَلِمَ أَنَّ الرِّسالَةَ فَخٌّ نَصَبَهُ لَهُ الكارْدينالُ.

وقد أَدْرَكَ الدّوقُ أَنَّهُ في خَطَرٍ جَسيمٍ، لٰكِنَّهُ لم يُرِدْ أَنْ يَعودَ إلى لَنْدَن دون رُؤْيَةِ المَلِكَةِ. فانْتَظَرَ في غُرْفَةِ القَصْرِ تِلْكَ غَيْرَ عابِئٍ بالمَخاطِرِ.

دَخَلَتِ المَلِكَةُ الغُرْفَةَ، فإذا وَجْهُها الجَميلُ شاحِبٌ. تَوَسَّلَتْ إلى الدّوقِ أَنْ يَعودَ إلى إنْكِلْترا، وجَعَلَتْهُ يَعِدُ بأَلّا يُحاوِلَ أَنْ يَراها سِرًّا أَبَدًا. ففي ذٰلِكَ خَطَرٌ جَسيمٌ.

قالَتْ. «تَعالَ سَفيرًا، وحَوْلَكَ حَرَسٌ يُدافِعونَ عَنْكَ. عِنْدَها أَعْرِفُ أَنَّكَ في أَمانٍ».

أَقَرَّها بَكِنغْهام على كَلامِها، وقالَ: «لَيْتَني أَحْمِلُ مَعي مِنْكِ شَيْئًا يُذَكِّرُني بِكِ!»

وَضَعَتِ المَلِكَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ عُلْبَةً مِنْ خَشَبٍ أَحْمَرَ طَيِّبِ الرّائِحَةِ، وقالَتْ:

«خُذْ هٰذِهِ، وارْحَلْ قَبْلَ فَواتِ الأَوانِ!»





سُرْعانَ ما وَصَلَ نَبَأُ ذٰلِكَ الاجْتِماعِ السِّرِّيِّ إلى الكارْدينالِ. نَقَلَهُ إلَيْهِ الكونْت دو روشْفور، وهو الرَّجُلُ ذو النَّدْبَةِ الَّذي أثارَ دارْتَنْيان في بَلْدَةِ مونْغ. فقد تَمَكَّنَ ذٰلِكَ الرَّجُلُ الَّذي كانَ عَميلاً للكارْدينالِ من زَرْعِ جاسوسَةٍ في جَناحِ المَلِكَةِ.

قالَ دو روشْفور للكارْدينالِ: «بَكِنْغْهام قابَلَ المَلِكَةَ، ثُمَّ عادَ إلى إنْكِلْترا.»

بَدا الغَضَبُ على وَجْهِ الكارْدينالِ، وهوَ يَقولُ: «خُطَّتُنا فَشِلَتْ إذًا.»

قالَ دو روشْفور: «المَلِكَةُ أهْدَتْ بَكِنْغْهام وِشاحَ الماساتِ الاِثْنَتي عَشْرَةَ الَّذي أهْداها إيّاهُ المَلِكُ في عيدِ ميلادِها.»

اِبْتَسَمَ الكارْدينالُ ابْتِسامَةً خَبيثَةً، وقالَ: «عَظيمٌ، عَظيمٌ! لَم نَخْسَرْ كُلَّ شَيْءٍ إذًا.»

كَتَبَ الكارْدينالُ رِسالَةً، وخَتَمَها. ثُمَّ اسْتَدْعى أحَدَ رِجالِهِ وقالَ: «خُذْ هٰذِهِ الرِّسالَةَ إلى لَنْدَن فَوْرًا. ولا تَجْعَلْ شَيْئًا أوْ أحَدًا يُؤَخِّرُكَ.»

جاءَ في الرِّسالَةِ: «ميلادي دو وِنْتَر كوني في أوَّلِ حَفْلَةٍ يُقيمُها بَكِنْغْهام. سَوْفَ يَلْبَسُ وِشاحَ الماساتِ الاِثْنَتي عَشْرَةَ. انْتَزِعي مِنَ الوِشاحِ ماسَتَيْنِ. وحالَما تَفْعَلينَ ذٰلِكَ أعْلِميني.»



ثُمَّ كانَ أَنْ عَلِمَ المَلِكُ بِزِيارَةِ بَكِنْغهام السِّرِّيَّةِ. فقد نَقَلَ إِلَيْهِ الخَبَرَ الكارْدينالُ نَفْسُهُ. أَثارَتْ تِلْكَ الزِّيارَةُ اسْتِنْكارَ المَلِكِ، وأَرادَ أَنْ يَعْرِفَ سَبَبَها.

قالَ الكارْدينالُ: «لا شَكَّ أَنَّهُ جاءَ يَتَآمَرُ مَعَ أَعْدائِكَ.»

أَسْرَعَ المَلِكُ يَقولُ بِغَضَبٍ شَديدٍ: «بَلْ جاءَ يَرى المَلِكَةَ!»

كانَ الكارْدينالُ عَلى عِلْمٍ بِشُكوكِ المَلِكِ، فابْتَسَمَ ابْتِسامَةً خَبيثَةً، وقالَ: «لَسْتُ أُحِبُّ أَنْ أَكونَ سَيِّئَ الظَّنِّ، ولكِنْ عَلِمْتُ أَنَّ المَلِكَةَ بَكَتْ هذا الصَّباحَ، وأَنَّها صَرَفَتِ اللَّيْلَ في كِتابَةِ رِسالَةٍ.»

صاحَ المَلِكُ: «أُريدُ أَنْ أَرى تِلْكَ الرِّسالَةَ!»

ثُمَّ أَرْسَلَ مُسْتَشارَهُ على الفَوْرِ لِتَفْتيشِ جَناحِ المَلِكَةِ. فلَمْ يَجِدِ المُسْتَشارُ إِلّا رِسالَةً مِنَ المَلِكَةِ إلى أَخيها تُهاجِمُ فيها طُغْيانَ الكارْدينالِ، ولا ذِكْرَ فيها لِبَكِنْغهام. وقد أَسْعَدَ ذلِكَ المَلِكَ كَثيرًا، وقالَ:

«كُنْتُ مُخْطِئًا أَيُّها الكارْدينالُ. فالمَلِكَةُ مُخْلِصَةٌ لي.»

حَنى الكارْدينالُ رَأْسَهُ، وقالَ: «لَعَلَّكَ تَرْغَبُ في أَنْ تُقيمَ حَفْلَةً تُسْعِدُها. فالمَلِكَةُ تُحِبُّ الحَفَلاتِ. وسَيَكونُ ذلِكَ مُناسَبَةً تَلْبَسُ فيها وِشاحَ الماساتِ البَديعَ الَّذي أَهْدَيْتَهُ لها في عيدِ ميلادِها.»



سُرَّتِ المَلِكَةُ كثيرًا حين عَلِمَتْ بالحَفْلَةِ المُفاجِئَةِ الَّتي يَجْري إعدادُها، وسَأَلَتْ بشَوْقٍ عَنْ مَوْعِدِها وقد أَعْلَمَها المَلِكُ أَنَّ الكارْديالَ هو الَّذي يُعِدُّ لِتِلْكَ الحَفْلَةِ. لكِنَّ الكارْدينالَ ظَلَّ أُسْبوعًا يَنْتَحِلُ الأَعْذارَ تَهَرُّبًا من تَعْيينِ مَوْعِدٍ.

وفي اليَوْمِ الثّامِنِ تَلَقّى الكارْديالُ رِسالَةً من ميلادي دووِنْتر. جاءَ في الرِّسالَةِ: «الماسَتانِ في حَوْزَتي. أَرْسِلْ لي مالًا فأَحْمِلَهُما إلى باريس.»

قَدَّرَ الكارْدينالُ أَنَّ في إِمْكانِ ميلادي أَنْ تَصِلَ إلى باريس خِلالَ عَشَرَةِ أَيّامٍ أَوِ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا. أَحَسَّ بالسَّعادَةِ لأَنَّ خُطَّتَهُ تَسيرُ في طَريقِ النَّجاحِ، فتَوَجَّهَ إلى المَلِكِ وقالَ لَهُ:

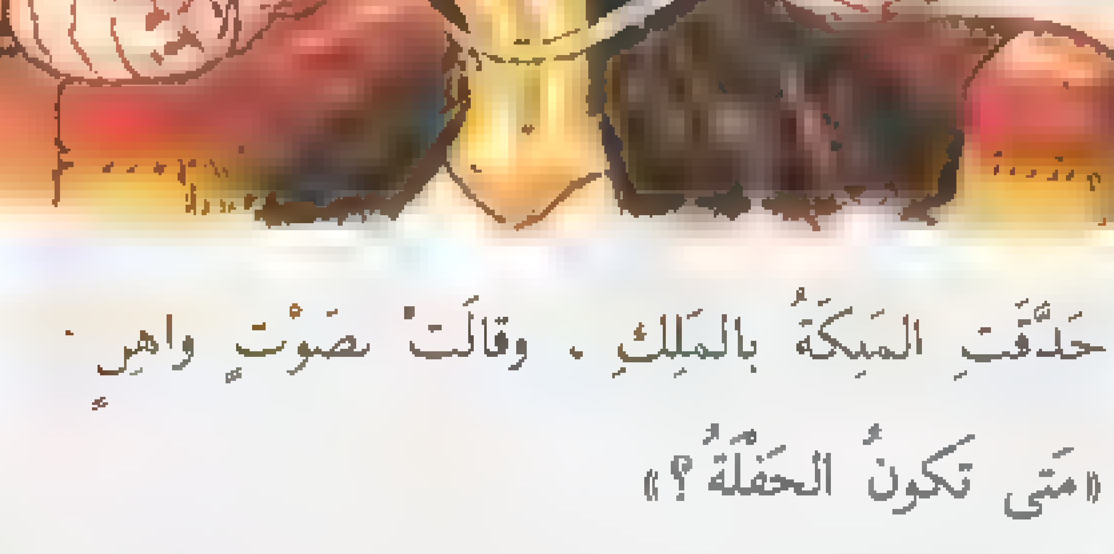


«أُعِدَّ كُلُّ شَيْءٍ، وستُقامُ الحَفْلَةُ بَعْدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا. أَرْجو، يا مَوْلايَ، أَنْ تُذَكِّرَ المَلِكَةَ بِلُبْسِ وِشاحِ الماساتِ!»

ابْتَهَجَتِ المَلِكَةُ حينَ عَلِمَتْ باقْتِرابِ مَوْعِدِ الحَفْلَةِ، ولكِنَّ ابْتِهاجَها انْقَلَبَ إلى صَدْمَةٍ قَوِيَّةٍ، حينَ قالَ لها المَلِكُ:

«أُريدُكِ أَنْ تَظْهَري في أَجْمَلِ حُلَّةٍ، وأَنْ تَلْبَسي وِشاحَ الماساتِ الَّذي أَهْدَيْتُكِ إيّاهُ في عيدِ ميلادِكِ.»





حَدَّقَتِ المَلِكَةُ بالمَلِكِ . وقالَتْ بِصَوْتٍ واهِنٍ :

«مَتى تكونُ الحَفْلَةُ؟»

أَجابَ المَلِكُ : «لقد جَعَلَ الكارْدينالُ المَوْعِدَ بَعْدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا» . وعِنْدَما سَمِعَتِ المَلِكَةُ اسْمَ الكَرْدينالِ أَصابَها شُحوبٌ شَديدٌ .

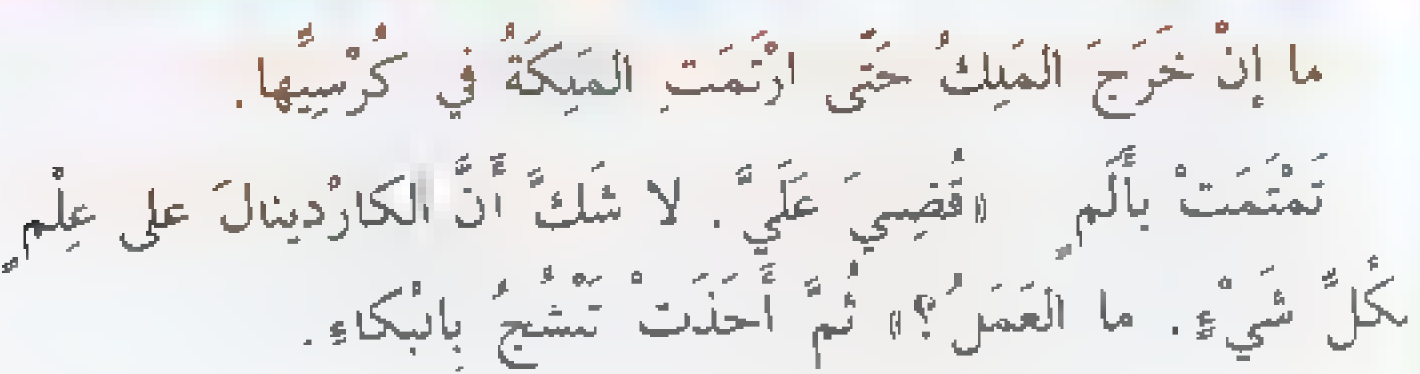
«أَكانَتْ فِكْرَتَهُ أَيْضًا أَنْ أَلْبَسَ وِشاحَ الماساتِ؟»

أَجابَ المَلِكُ بِعَصَبِيَّةٍ : «هِيَ أَنَّها كانَتْ فِكْرَتَهُ . فَهَلْ تَرَيْنَ أَنِّي أَطْلُبُ شَيْئًا كَثيرًا؟»

* * *



ما إِنْ خَرَجَ المَلِكُ حَتّى ارْتَمَتِ المَلِكَةُ في كُرْسِيِّها .



تَمْتَمَتْ بِأَلَمٍ : «قُضِيَ عَلَيَّ . لا شَكَّ أَنَّ الكارْدينالَ على عِلْمٍ بِكُلِّ شَيْءٍ . ما العَمَلُ؟» ثُمَّ أَخَذَتْ تَنْشِجُ بِالبُكاءِ .

«لا تَبْكي ، يا صاحِبَةَ الجَلالَةِ .»

اِسْتَدارَتِ المَلِكَةُ سَريعًا ، وكانَتْ تَظُنُّ أَنَّها وَحْدَها في تِلْكَ الغُرْفَةِ ، فإذا أَمامَها كونسْتانْس بوناسْيو الَّتي كانَتْ قد سَمِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

قالَتْ للمَلِكَةِ : «لا تَخافي ، فَسَنُعيدُ إِلَيْكِ الماساتِ في الوَقْتِ المُناسِبِ لِتَلْبَسيها وَقْتَ الحَفْلَةِ !»

كانَتْ كونسْتانس تَعْلَمُ أَنَّها لا تَسْتَطيعُ اللُّجوءَ إلى زَوْجِها. فقد أَطْلَقَ الكارْدينالُ سَراحَهُ بَعْدَ أَنْ رَشاهُ بِالمالِ فصارَ واحِدًا من رِجالِهِ. لَيْسَ أَمامَها إلّا شَخْصٌ واحِدٌ تَلْجَأُ إلَيْهِ، ذٰلِكَ هو دارْتَنْيان. أَخْبَرَتْ دارْتَنْيان بِما حَدَثَ بَعْدَ أَنْ جَعَلَتْهُ يُقْسِمُ على الحِفاظِ على سِرِّيَّةِ ما تَقولُ.

* * *

أَسْرَعَ دارْتَنْيان، دونَ أَنْ يُضَيِّعَ لَحْظَةً واحِدَةً، فقابَلَ السَّيِّدَ دوتْريفيل، وطَلَبَ مِنْهُ إذْنًا بِالسَّفَرِ.

قالَ مُوَضِّحًا: «عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ إلى لَنْدَن في مُهِمَّةٍ سِرِّيَّةٍ أَخْدُمُ فيها المَلِكَةَ.»

نَظَرَ السَّيِّدُ دوتْريفيل إلى الشّابِّ المُتَحَمِّسِ نَظْرَةً فاحِصَةً وقالَ:

«وهَلْ سيُحاوِلُ أَحَدٌ مَنْعَكَ مِنَ القِيامِ بِمُهِمَّتِكَ هٰذِهِ؟»

أَجابَ دارْتَنْيان: «نَعَمْ. الكارْدينالُ سيُحاوِلُ ذٰلِكَ، إنْ هو عَلِمَ بِمُهِمَّتي.»

قالَ السَّيِّد دوتْريفيل: «لَنْ تَذْهَبَ وَحْدَكَ إذًا. آتوس، بورْتوس وأَراميس سيُرافِقونَكَ. مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ واحِدًا مِنْكُمْ سيَكونُ قادِرًا على الوُصولِ إلى لَنْدَن.»

لم يَكُنْ آتوس وبورْتوس وأَراميس أَقَلَّ حَماسَةً مِنْ صَديقِهِمِ الشّابِّ حينَ عَلِموا بِالمُهِمَّةِ الجَديدَةِ.





غادَرَ المُغامِرونَ الأَرْبَعَةُ باريس في الثّانِيَةِ صَباحًا. وظَلّوا صامِتينَ مُدَّةَ انْتِشارِ الظَّلامِ. فقد كانوا يَتوقَّعونَ، دونَ سَبَبٍ واضِحٍ، أَنْ يَقَعوا في كَمينٍ عِنْدَ كُلِّ مُنْعَطَفٍ. لٰكِنَّ روحَهُمُ المَعْنَوِيَّةَ ارْتَفَعَتْ مَعَ شُروقِ الشَّمْسِ.

سارَتِ الأُمورُ على خَيْرِ وَجْهٍ إلى أَنْ وَصَلوا صَباحًا بَلْدَةَ شانْتيي. فقد تَوَقَّفوا في نُزُلٍ لِتَناوُلِ الفُطورِ، وحَدَثَ أَنَّ رَجُلًا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَهْتِفوا بِحَياةِ الكارْدينالِ. وافَقَ بورْتوس شَرْطَ أَنْ يَهْتِفَ الرَّجُلُ بِحَياةِ المَلِكِ. فصاحَ الرَّجُلُ أَنَّهُ لَنْ يَهْتِفَ إلّا بِحَياةِ الكارْدينالِ. وتَبِعَ ذلكَ نِزاعٌ حادٌّ. فبَقِيَ بورْتوس لِتَسْوِيَةِ ذٰلِكَ النِّزاعِ، بَيْنَما رَحَلَ رِفاقُهُ الثَّلاثَةُ لإتْمامِ مُهِمَّتِهِمْ.

حَثُّوا مَطاياهُم ساعاتٍ. ثُمَّ الْتَقَوا بِبَعْضِ العُمّالِ يُصْلِحونَ الطَّريقَ. وما إنْ صاروا بِمُحاذاةِ أُولٰئِكَ العُمّالِ حَتّى رَأَوْهُمْ يُخْرِجونَ مِنْ تَحْتِ ثِيابِهِمْ بَنادِقَ.

صاحَ دارْتَنْيان: «أَسْرِعوا! إنَّهُ كَمينٌ!»

طاروا بِجِيادِهِمْ، ولٰكِنَّ أراميس أُصيبَ بِكَتِفِهِ. لَمْ يَعُدْ بِإمْكانِهِ أَنْ يُسافِرَ بَعيدًا، فتَرَكَهُ صاحِباهُ في قَرْيَةٍ مُجاوِرَةٍ بَعْدَ أَنْ ضَمَّدا جُرْحَهُ.

بَقِيَ دارْتَنْيان وآتوس يُتابِعانِ الرِّحْلَةَ وَحْدَهُما. وعِنْدَ حُلولِ الظَّلامِ أَقاما لَيْلَتَهُما في نُزُلٍ في مَدينَةِ أَمْيان. كانَتْ تِلْكَ لَيْلَةً هادِئَةً، لكِنْ حينَ تَقَدَّمَ آتوس في صَباحِ اليَوْمِ التّالي لِيَدْفَعَ الإيجارَ اتَّهَمَهُ صاحِبُ النُّزُلِ بِأَنَّهُ يَحْمِلُ نُقودًا مُزَوَّرَةً. وأَحاطَ بِهِ على الفَوْرِ رِجالٌ أَرْبَعَةٌ بَدا واضِحًا أَنَّهُمْ كانوا يَنْتَظِرونَ.

صاحَ آتوس، وهو يَسْتَلُّ سَيْفَهُ: «اِنْطَلِقْ، يا دارْتَنْيان!»

قَفَزَ دارْتَنْيان إلى ظَهْرِ جَوادِهِ وراحَ يَعْدو بِهِ بِأَقْصى سُرْعَةٍ. وأَخيرًا، وكانَ الإجْهادُ قد أَنْهَكَ الجَوادَ، وَصَلَ دارْتَنْيان ميناءَ كاليه حَيْثُ تَرْسو السُّفُنُ المُسافِرَةُ إلى إنْكِلْتِرا. أَسْرَعَ يَعْدو إلى رَصيفِ الميناءِ. وهُناكَ وَجَدَ رَجُلًا يَطْلُبُ مِنْ قُبْطانِ مَرْكَبٍ نَقْلَهُ إلى إنْكِلْتِرا. لكِنَّ القُبْطانَ أَوْضَحَ أَنَّ أَحَدًا لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُبْحِرَ إلّا بِجَوازٍ خاصٍّ، وأَنَّ تِلْكَ أَوامِرُ جَديدَةٌ أَصْدَرَها الكارْدينالُ نَفْسُهُ.

بَسَطَ الرَّجُلُ وَرَقَةً أَمامَهُ، وهُوَ يَقولُ: «مَعي الجَوازُ. أَتَأْخُذُني؟»

وافَقَ القُبْطانُ على أَخْذِ الرَّجُلِ، شَرْطَ أَنْ يُوَقِّعَ رَئيسُ الميناءِ على الجَوازِ. سَمِعَ دارْتَنْيان هذا الحِوارَ فَأَسْرَعَ وكَمَنَ لِلرَّجُلِ بَيْنَ الأَشْجارِ في انْتِظارِ عَوْدَتِهِ مِنْ عِنْدِ رَئيسِ الميناءِ. لَمْ يَكُنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يُفَوِّتَ فُرْصَةً كَهذِهِ، لأَنَّهُ بِغَيْرِ جَوازِ المُرورِ ذاكَ لَنْ يَسْتَطيعَ مُغادَرَةَ فَرَنْسا. وكانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ يَرْفُضَ الرَّجُلُ تَسْليمَ الجَوازِ، فاحْتَكَمَ الرَّجُلانِ إلى السَّيْفِ، واشْتَبَكا طَويلًا. أَخيرًا، وَجَدَ الرَّجُلُ

أَنْ لا قِبَلَ لَهُ بِدارْتَنْيان فَسَلَّمَهُ الوَرَقَةَ الثَّمينَةَ.

دَسَّ دارْتَنْيان الجَوازَ في جَيْبِهِ، وأَسْرَعَ لاهِثًا إلى الميناءِ يُفَتِّشُ عَنْ مَرْكَبٍ يَحْمِلُهُ إلى إنْكِلْتِرا.



لم يَكَدْ مَرْكَبُ دارْتَنيان يُقْلِعُ حَتّى دَوّى صَوْتُ مِدْفَعٍ ، مُؤْذِنًا بإغْلاقِ المَرْفَإِ لقَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الإفْلاتِ في آخِرِ لَحْظَةٍ كانَ التَّعَبُ قد نالَ مِنْهُ فنامَ طَوالَ الرِّحْلَةِ وفي الصَّباحِ كانَ قد دَخَلَ ميناءَ دوفَر الإنْكِليزيَّ ولم يُضِعْ وَقْتًا فاتَّجَهَ مُباشَرَةً إلى لَنْدَن.

لم يَكُنْ دارْتَنيان يَعْرِفُ الإنْكليزيَّةَ ، لكِنَّهُ كانَ يَحْمِلُ وَرَقَةً كُتِبَ عَلَيْها اسْمُ دوق بَكِنغهام ، فَدَلَّهُ النّاسُ على مَقْصَدِهِ بسُرْعَةٍ. اِسْتَقْبَلَهُ الدّوقُ على الفَوْرِ لأَنَّهُ كانَ يَعْرِفُهُ مُنْذُ أنِ الْتَقى بِهِ في أَحَدِ شَوارِعِ باريس المُعْتِمَةِ.

شَحَبَ وَجْهُ الدّوقِ شُحوبًا شَديدًا حينَ أَعْلَمَهُ دارْتَنيان بالخَطَرِ الجَسيمِ الَّذي يَحيقُ بالمَلِكَةِ.

قالَ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ «عَلَيْنا أَنْ نُعيدَ إلَيْها وِشاحَ الماسِ. لا أُريدُ أَنْ يَعْرِفَ المَلِكُ أَنَّها قَدَّمَتِ الوِشاحَ لي!»

جاءَ بعُلْبَةِ وِشاحِ الماسِ وفَتَحَها. وما إنْ رَفَعَ الوِشاحَ حَتّى شَهَقَ في فَزَعٍ قائلًا:

«لقَدِ اخْتَفَتْ ماسَتان!»





سَأَلَ دارْتَنْيان بِقَلَقٍ: «أَتُرى سَقَطَتا، يا سَيِّدي؟»

أَجابَ الدّوقُ مُتَجَهِّمًا: «بَلْ سُرِقَتا.» ثُمَّ أَرى دارْتَنْيان الجانِبَ مِنَ الوِشاحِ حَيْثُ قُصَّ الوِشاحُ وانْتُزِعَتِ الماسَتانِ.

صاحَ الدّوقُ فَجْأَةً: «مَهْلًا! الآنَ تَذَكَّرْتُ. فقد لَبِسْتُ الوِشاحَ مَرَّةً واحِدَةً فَقَطْ، في حَفْلَةٍ أُقيمَتْ في لَنْدَن. ولقد لاحَظْتُ أَنَّ ميلادي دو وِنْتَر تُبالِغُ، على غَيْرِ عادَتِها، في مُلاطَفَتي. لا شَكَّ أَنَّها

هِيَ الَّتي انْتَزَعَتِ الماسَتَيْنِ، ولا شَكَّ أَنَّها عَميلَةٌ مِنْ عُمَلاءِ الكارْدينالِ.»

راحَ يَذْرَعُ الغُرْفَةَ ذَهابًا وإِيابًا يُفَكِّرُ في مَخْرَجٍ مِنْ تِلْكَ الوَرْطَةِ. أَخْبَرَهُ دارْتَنْيان أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ على مَوْعِدِ حَفْلَةِ باريس إِلّا خَمْسَةُ أَيّامٍ، وأَنَّ غَضَبَ المَلِكِ سَيَكونُ شَديدًا حينَ يَكْتَشِفُ أَمْرَ الماسَتَيْنِ المَفْقودَتَيْنِ. وستكونُ مُؤامَرَةُ الكارْدينالِ قد نَجَحَتْ. تَوَقَّفَ الدّوقُ فَجْأَةً عَنِ المَشْيِ والتَفَتَ إلى دارْتَنْيان وهَتَفَ بِأَمَلٍ وحَماسَةٍ:

«خَمْسَةُ أَيّامٍ تَكْفينا! وَجَدْتُ الحَلَّ.»



عَلِمَ بَكِنغهام أَنَّ ميلادي دو وِنْتر كانَتْ لا تَزالُ في إِنْكِلْترا ، فأَصْدَرَ أَمْرًا بِمنْعِ أَيِّ سَفينَةٍ مِنَ الإِبْحارِ إلى فَرَنْسا.

اِسْتَدْعى الدّوقُ ، بَعْدَ ذٰلِكَ ، أَمْهَرَ جَوْهَرِيٍّ ، وأَراهُ الوِشاحَ ، ووَعَدَهُ بِمُكافَأَةٍ مالِيَّةٍ كَبيرَةٍ إِنْ هو تَمكَّنَ من صُنْعِ ماسَتَيْنِ تُشْبِهانِ تَمامًا سائِرَ الماسات. وكانَ على الجَوْهَرِيِّ أَنْ يُنَفِّذَ مُهِمَّتَهُ في يَوْمَيْنِ فقط ، وأَنْ يَأْتِيَ صُنْعُهُ بِحَيْثُ لا يَقْدِرُ أَحَدٌ على تَمْييزِ الماسَتَيْنِ الجَديدَتَيْنِ مِنَ الماساتِ القَديمَةِ. وافَقَ الجَوْهَرِيُّ ، وخَرَجَ مُسْرِعًا لِيَبْدَأَ مُهِمَّتَهُ

هَتَفَ الدّوقُ بِحَماسَةٍ : «لَمْ نُهْزَمْ ، يا دارْتَنْيان !»

بَعْدَ يَوْمَيْنِ كانَتِ الماسَتانِ الجَديدَتانِ في يَدِ الدّوقِ. فَتَفَحَّصَهُما جَيِّدًا ، وكَذٰلِكَ فَعَلَ دارْتَنْيان وذَهِلَ الرَّجُلانِ بِدِقَّةِ صُنْعِهِما ، فَقَدْ كانَ يَسْتَحيلُ على أَيٍّ كانَ أَنْ يَكْتَشِفَ أَنَّهُما لَمْ تَكونا في المَجْموعَةِ الأَصْلِيَّةِ. الآنَ بِإِمْكانِ دارْتَنْيان أَنْ يَعودَ إلى فَرَنْسا مُطْمَئِنَّ البالِ.

بَدا لَهُ ، وهو يُغادِرُ مَرْفَأَ دوفر على مَتْنِ سَفينَةٍ سَريعَةٍ ، أَنَّهُ لَمَحَ ميلادي دو وِنْتر على مَتْنِ سَفينَةٍ مِنَ السُّفُنِ المَمْنوعَةِ مِنَ الإِبْحارِ تَنْفيذًا لِأَمْرِ الدّوقِ ، وما إِنْ عَبَرَ القَنالَ الإِنْكِليزيَّ حَتّى انْطَلَقَ إلى باريس بِأَقْصى سُرْعَةٍ.

* * *

كانَتِ الحَفْلَةُ المَلَكيَّةُ المُنْتَظَرَةُ حَديثَ النّاسِ في باريس. فلَقَدْ بُذِلَتْ جُهودٌ كَبيرَةٌ في الإعْدادِ لِتلْكَ الحَفْلَةِ، وامْتَلأَ القَصْرُ بالأَزْهارِ وآلافِ الشُّموعِ. وما إنْ أَطَلَّ المَلِكُ حَتّى دَوَّتْ قاعَةُ الاحْتِفالِ بالهُتافِ. ثُمَّ دَخَلَتِ المَلِكَةُ بقامَتِها الرَّشيقَةِ، لَكِنْ دونَ وِشاحِ الماساتِ. وكانَ الكارْدينالُ يُراقِبُ القاعَةَ مِنْ وَراءِ سِتارَةٍ، فارْتَسَمَتْ على شَفَتَيْهِ عَلامَةُ انْتِصارٍ. وسُرْعانَ ما لَفَتَ انْتِباهَ المَلِكِ إلى هٰذِهِ المَسْأَلَةِ.

قالَ المَلِكُ بلَهْجَةٍ حازِمَةٍ: «لِماذا لَمْ تَلْبَسي وِشاحَ الماساتِ، يا سَيِّدَتي؟»

تَلَفَّتَتِ المَلِكَةُ حَوْلَها فَرَأَتِ الكارْدينالَ، ثُمَّ قالَتْ:

«خَشيتُ عَلَيْهِ، يا مَوْلايَ، وَسطَ هٰذِهِ الجُموعِ. سأُرْسِلُ الآنَ في طَلَبِهِ.»

جَلَسَتِ المَلِكَةُ في قاعَةٍ مُجاوِرَةٍ، ومَعَها بَعْضُ وَصيفاتِها، في انْتِظارِ الوِشاحِ. فانْتَهَزَ الكارْدينالُ هٰذِهِ الفُرْصَةَ وقَدَّمَ لِلْمَلِكِ عُلْبَةً تَحْتَوي على الماسَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كانَتْ ميلادي دووِنْتر قد سَرَقَتْهُما مِنْ بَكِنغْهام، وقالَ بخُبْثٍ:

«لِمَ لا تَسْأَلُ المَلِكَةَ، يا مَوْلايَ، عَنْ هاتَيْنِ الماسَتَيْنِ؟»

لَكِنْ سُرْعانَ ما انْقَلَبَ انْتِصارُهُ إلى غَضَبٍ شَديدٍ، عِنْدَما أَطَلَّتِ المَلِكَةُ مَرْفوعَةَ الرَّأْسِ، وقد لَبِسَتِ الوِشاحَ بماساتِهِ الاثْنَتَيْ عَشْرَةَ.



بَدَتِ الحَيْرَةُ على وَجْهِ المَلِكِ ، وهو يَنْظُرُ إلى الماسَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَدَّمَهُما لَهُ الكارْدِينالُ ، وقالَ :

«ما مَعْنى هٰذا؟»

راحَ الكارْدينالُ يُفكِّرُ سَريعًا في مَخْرَجٍ ، ثُمَّ قالَ : «أَرَدْتُ أَنْ أُقَدِّمَ هاتَيْنِ الماسَتَيْنِ هَدِيَّةً لِجَلالَتِها . ولكِنّي لَمْ أَجْرُؤْ على تَقْديمِهِما لَها بِنَفْسي فلَجَأْتُ إلى هٰذِهِ الطريقَةِ .»

ابْتَسَمَتِ المَلِكَةُ ابْتِسامَةً بَدا مِنْ خِلالِها أَنَّها تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ مَكيدَةِ الكارْدينالِ ، وقالَتْ : «عَلَيَّ واجِبُ الشُّكْرِ ، يا نِيافَةَ الكارْدينالِ . أَحْسَبُ أَنَّكَ قد بَذَلْتَ لِلْحصولِ على هاتَيْنِ الماسَتَيْنِ قَدْرَ ما بَذَلَ المَلِكُ لِلْحصولِ على سائِرِ الماساتِ .»

بَدا دارْتَنْيان سَعيدًا وهو يُشاهِدُ انْتصارَ المَلِكَةِ على خَصْمِها . ولَمْ يَكُنْ أَحَدٌ في تِلْكَ القاعَةِ المُزْدَحِمَةِ ، غَيْرُهُ وغَيْرُ المَلِكَةِ والكارْدينالِ ، قد فَهِمَ شَيْئًا مِمّا حَدَثَ ذٰلِكَ اليَوْمَ .

اِسْتَدْعَتِ المَلِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ دارْتَنْيان وقَدَّمَتْ لَهُ هَدِيَّةً خاتَمًا ماسِيًّا وشَكَرَتْهُ . وقد سَرَّهُ أَنَّهُ ساعَدَ المَلِكَةَ في أَحْرَجِ أَوْقاتِها . كما أَسْعَدَهُ أَنْ يَكونَ مُقَرَّبًا مِنَ المَلِكِ والسَّيِّدِ دو تْريفيل . وهو ، فَوْقَ ذٰلِكَ كُلِّهِ ، كَسَبَ صَداقَةَ ثَلاثَةِ رِجالٍ شُجْعانٍ ، هم آتوس ، بورْتوس وأَراميس . وكانَ واثِقًا أَنَّهُ لَنْ يَطولَ الوَقْتُ حَتّى يُصْبِحَ فارِسًا مِثْلَهُمْ .





تَسْعى مَكْتَبَة لُبْنان مِنْ خِلالِ هٰذِهِ السِّلْسِلَةِ إلى تَعْريفِ الفَتى العَرَبِيِّ بِرَوائِعِ الأَدَبِ العالَمِيِّ، وإِعْدادِهِ لِلدُّخولِ، فيما بَعْدُ، في عالَمِ القِصَصِ الخالِدَةِ مِنْ بابِهِ الواسِعِ. إِنَّنا نَعْتَقِدُ أَنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنائِنا أَنْ يُكَوِّنوا فِكْرَةً صَحيحَةً شامِلَةً عَنْ إِنْتاجِ القِصَصِ الذّائِعَةِ الصِّيتِ في مُخْتَلِفِ أَصْقاعِ الأَرْضِ.

عَلى أَنَّنا نَثِقُ أَنَّ هٰذِهِ القِصَصَ تَصْلُحُ، بِالشَّكْلِ الَّذي نُقَدِّمُها فيهِ، لِلْكِبارِ أَيْضًا. لأَنَّنا حَرَصْنا عَلى أَلّا نَنْتَقِصَ مِنْ جَوْهَرِ الفِكْرَةِ الَّتي يَقومُ عَلَيْها العَمَلُ ومِنْ بِناءِ الشَّخْصِيّاتِ كَما أَرادَها المُؤَلِّفونَ.

وحَرَصْنا عَلى المُحافَظَةِ عَلى عَناوينِ الكُتُبِ الأَصْلِيَّةِ وكَذٰلِكَ عَلى أَسْماءِ العَلَمِ والأَماكِنِ، كَما وَرَدَتْ في الأَصْلِ، رَغْبَةً في إِعْطاءِ صورَةٍ حَقيقِيَّةٍ عَنِ الجَوِّ العامِّ لِلْقِصَصِ، مِنْ حَيْثُ المَكانُ والأَوْضاعُ الاجْتِماعِيَّةُ والأَحْداثُ التاريخِيَّةُ، وخِدْمَةً لِلْهَدَفِ الَّذي نَسْعى إِلَيْهِ وهُوَ تَمْهيدُ الطَّريقِ لِلتَّعَرُّفِ إِلى الأَدَبِ العالَمِيِّ. عَلى أَنَّنا تَجَنَّبْنا الخَوْضَ في تَفاصيلِ الأَسْماءِ الَّتي لا تَتَعَلَّقُ مُباشَرَةً بِصُلْبِ المَوْضوعِ ولا تُؤَثِّرُ عَلى سَيْرِ الأَحْداثِ، وذٰلِكَ لِكَيْ لا نُرْبِكَ القارِئَ العَرَبِيَّ بِأَسْماءٍ ثانَوِيَّةِ الأَهَمِّيَّةِ، غَريبَةِ اللَّفْظِ قَليلَةِ التَّواتُرِ.

وتَمْتازُ هٰذِهِ القِصَصُ كُلُّها بِأَنَّها شَديدَةُ التَّشْويقِ، وتَقومُ في غالِبِها عَلى المُغامَراتِ المُثيرَةِ. وأَكْثَرُ هٰذِهِ القِصَصِ المُخْتارَةِ كُتِبَتْ أَصْلًا لِتُرْضِيَ جُمْهورَ الشَّبابِ، وهِيَ مِنْ هٰذِهِ النّاحِيَةِ تُرْضي مَشاعِرَهُمْ ومَبادِئَهُمْ وحُبَّهُمْ لِلانْطِلاقِ واكْتِشافِ المَجْهولِ.

إِنَّ هٰذِهِ القِصَصَ جَميعَها، وإِنْ تَكُنْ في غالِبِها تَقومُ عَلى حُبِّ المُغامَرَةِ، تَتَناوَلُ أَصْدَقَ المَشاعِرِ الإِنْسانِيَّةِ، وتُصَوِّرُ كِفاحَ الإِنْسانِ لِتَحْقيقِ مُثُلِهِ العُلْيا دونَ أَنْ يَعْبَأَ بِالتَّضْحِياتِ.

وزُوِّدَتْ كُتُبُ السِّلْسِلَةِ جَميعِها بِمُقَدِّماتٍ تُعَرِّفُ بِالمُؤَلِّفِ كَما زُوِّدَتْ بِرُسومٍ مُلَوَّنَةٍ رائِعَةٍ تُضْفي جَوًّا مِنَ السِّحْرِ عَلى أَحْداثِ القِصَصِ، وتُصَوِّرُ الخَلْفِيّاتِ الاجْتِماعِيَّةَ والتاريخِيَّةَ أَصْدَقَ تَصْويرٍ.

طبع في إنكلترا ١٩٨٢

